المحاضرة الثامنة: نظريات الأصل والنشأة

تمهيد:

اختلف منظرو الأدب في نشأة الأدب وكيفيته اختلافا كبيرا ولا يزال هذا الاختلاف قائما إلى يومنا هذا، ويرجع هذا الاختلاف في عمومه إلى اختلاف المذاهب والمدارس؛ فكلّ باحث يفسّر نشأة الأدب حسب الفلسفة التي تقوم عليها نظريته، بيد أنّهم اتفقوا في الأسئلة المطروحة التي كانت في عمومها كالآتي:

- كيف ينشأ الأدب؟
- ما هي العوامل المساهمة في نشأته؟
- هل هو نتاج بشري؟ أم هناك عوامل خارجة عن الإرادة الإنسانية؟

1. **الإلهام:** يرى بعض الباحثين القدماء في الأدب أنّ مصدر الأدب هو الإلهام؛ فعند اليونان رُبط الأدب بآلهة الفن. من هذه الآلهة نجد **أبولو (Apollon)** إله الفنّ بما فيه الشعر والموسيقى، كما نجد الإلهات الملهمات (الميوزات) (Muses) وهنّ إلهات أخوات كلّ واحدة من هنّ أوكل إليها إلهام فن من الفنون[1]:

- كاليوبي (Calliope): إلهة الشعر الملحمي والخطابة، وكانت تُلهم هذه القدرة للأمراء.
- أورانيا (Uranie): إلهة العلوم الفلكيّة.
- إيوتيربي (Euterpe): إلهة الشعر الغنائي.
- كليو (Clio): إلهة التاريخ.
- إيراتو (Ératô): إلهة الشعر الغزلي والإيماء.
- بوليمنيا (Polymnie): إلهة ترانيم الآلهة والأبطال.
- تيربسيكوري (Terpsichore): إلهة الأغاني الكورسية والرقص.
- ثاليا (Thalie): إلهة الكوميديا والأشعار الريفيّة.
- ميلبوميني (Melpomène): إلهة التراجيديا.

أمّا عند العرب الجاهليين فقد ارتبط بشيطان الشعر؛[2] فإذا كان الشاعر مبدعاً قيل أنّ الذي تلبسه شيطان أمّا إذا كان شعره هزيلاً قيل أنّه تلبسته شيطانة، فالشاعر "لا ينطق بالشعر بمحض إرادته، وإنّما مدفوعاً بقوّة ليس بمقدوره صدها؛ وليس هو، بالضبط، صاحب القول، لأنّ القائل الفعلي شيطان تقمصه

---

[1]. ينظر مارك كارترايت، الملهمات، تر: حنان الفريوان، موسوعة تاريخ العالم، تاريخ النشر: 14 ديسمبر 2012 https://www.worldhistory.org/trans/ar/1-787/.

[2]. ينظر شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، 1993، ص11.

ويتكلم على لسانه"[1]. فإذا أراد أحدهم أن يُصبح شاعراً فذاً يذهب إلى وادي عبقر الذي تسكنه الشياطين – حسبهم- حتى تتلبسه الشياطين ومن ثمّ يُصبح شاعراً لا يُشق له غُبار.

2. **العوامل النفسيّة:**

يرى فريق آخر أنّ نشأة الأدب ترتبط بعوامل نفسيّة؛ فالشاعر يجيد إذا عايش أزمات نفسيّة أو معانات عاطفية ومعظم الأدباء المبدعين كانت إبداعاتهم تعبيراً عن معانات نفسيّة؛[2] **فبشار بن برد** كان يعبّر عن الجمال الذي لم يره قط لأنّه كان أعمى، و**بدر شاكر السياب** نظم بعضاً من أجمل القصائد في الشعر العربي الحديث لأنّ محبوبته صدّته لافتقاره للوسامة، و**عنترة بن الشداد** نظم قصائد خالدة بعد أن مُنع من وصل محبوبته.

ومن العوامل النفسية الطرب؛ حيث تُسهم النشوة والفرح البالغ في دفع الأديب إلى التعبير عن عواطف السعادة، كما يؤدي تراكم المكبوتات إلى دفع الأديب للتعبير، وفي بعض الأحيان النبوغ، وهي مسألة قدّم فيها **فرويد** كثيراً من الأبحاث المشفوعة بالتجارب[3]؛ حيث ركّز على دور العقد النفسيّة والمكبوتات في تشكّل الأعمال الأدبية، خاصة تلك المكبوتات التي تشكّلت في الصغر.

3. **فعالية اجتماعية:**

يرى بعضهم أنّ الأدب نتاج فعالية اجتماعية؛[4] فالأديب فرد يعيش ضمن جماعة، وتفرض عليه هذه العلاقة بما فيها من تأثير وتأثر أن يتفاعل مع قضايا مجتمعه ويعبّر عنها، أو يبدي رأيه فيها. ويقول **عبد المنعم تليمة** في هذا السياق: "والفن صورة من الوعي الاجتماعي وظاهرة من الظواهر الثقافيّة. وهو يخضع -في تطوره- للقوانين العامّة السابقة في علاقة الوعي بالوجود. فكلّ نظام اجتماعي يبدع ما يُعبّر عن حقائق وجوده وطبيعة علاقاته"[5].

كما يرى هذا الاتجاه أنّ نشأة الأجناس الأدبية وتطورها وحتى انقراضها مرتبط بالعوامل الاجتماعيّة[6]. "فالأغلبيّة الكبرى من القضايا التي يثيرها الأدب هي قضايا اجتماعيّة: قضايا حول التراث والتقليد، المعايير،

---

[1]. عبد الفتاح كيليطو، الأدب والارتياب، ط01، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2007، ص05.

[2]. ينظر شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص11.

[3]. يُنظر محمد قراش، التحليل النفسي وتفسير الفن والأدب (قراءة في الإسهامات التأسيسية لسيغموند فرويد)، مجلّة حقائق للدراسات النفسيّة والاجتماعيّة، مجلّد 05، العدد 18، جوان 2020، ص123/108.

[4]. ينظر شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص11.

[5]. عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظرية الأدب، ط03، دار العودة، بيروت، 1983، ص114.

[6]. المرجع نفسه، ص137.

والأجناس الأدبية، الرموز، والأساطير حول علاقات الأدب بموقف اجتماعي معيّن، وعلاقاته أيضاً بالنظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وحول وصف وتحديد تأثير المجتمع على الأدب"[1].

4. **يكون بطلب من طرف له سلطة أو مكانة عند الأديب:**

نجد في كثير من الأعمال الأدبية إشارة إلى أنّ هذا الأخير أُنتج بطلب من أحدهم، وما كان من الأديب إلاّ أن يُحقق هذه الرغبة. ومن الأمثلة التي يمكن أن نقدها في هذا السياق كتاب (كليلة ودمنة) الذي ألّفه الحكيم **بيدبا**[2] بطلب من **دبشليم** ملك الهند، فقد كانت عادة ملوك الهند أن يجعل كلّ واحد منهم لنفسه كتابا عظيما يُخلّد ملكه ويُبقي ذِكره من بعد "ثمّ إنّ الملك **دبشليم** لمّا استقر له الملك وسقط عنه النظر في أمور الأعداء بما كفاه ذلك **بيدبا**، صرف همّته إلى النظر في الكتب التي وضعها فلاسفة الهند لآبائه وأجداده. فوقع في نفسه أن يكون له أيضا كتاب مشروح يُنسب إليه وتُذكر فيه أيامه كما ذُكر آباؤه وأجداده من قبله. فلمّا عزم على ذلك علم أنّه لا يقوم إلاّ **بيدبا** بذلك. فدعاه وخلا به وقال له: يا **بيدبا** إنّك حكيم الهند وفيلسوفها. وإنّي فكرت ونظرت في خزائن الحكمة التي كانت للملوك قبلي فلم أر فيهم أحد إلاّ وقد وضع كتابا يذكر فيه أيامه وسيرته... وقد أحببت أن تضع لي كتابا بليغا تستفرغ فيه عقلك"[3]. أمّا النموذج الثاني الذي يُمكن أن نقدمه في هذا السياق هو إلياذة الجزائر التي نظمها **مفدي زكرياء** بطلب من **مولود قاسم نايت بلقاسم** الذي كان وزير التعليم تحت رئاسة **هواري بومدين**، بمناسبة الذكرى العاشرة لاسترجاع السيادة الوطنيّة.

5. **الإبداع عمليّة حرّة:**

يرى بعضهم أن الأدب نتاج عملية حرّة؛[4] فالأديب يبدع عن وعي وتشكيله للأدب يكون برغبته الخالصة دون دوافع خارجية، فهو يكتب ما يريد كيفما يريد متى يريد.

---

[1]. مارتن ليندلاور، الدراسة النفسيّة للأدب، تر : شاكر عبد الحميد، ط02، الهيئة العامّة لقصور الثقافة، القاهرة، 1996، ص 123.

[2]. فيشو شارما المعروف بـ بيدبا والتي تعني باللّغة السنسكريتية الرجل الحكيم، فيلسوف هندي من أكثر أعماله شهرة كتاب بنجاتنترا ومعناها الفصول الخمسة، وبعد ذلك تُرجم إلى الفهلوية الفارسيّة في عهد كسري أنوشروان، ومن ثمَّ إلى اللّغة العربية تحت عنوان كليلة ودمنة على يد ابن المقفع.

[3]. كليلة ودمنة، بيدبا الفيلسوف، تر: عبد الله بن المقفع، مكتبة صادر، بيروت، 1933، ص21/20.

[4]. ينظر شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص11.